الإمام القشيري
وجهوده في حركة التفسير

المدرس الدكتور سعيد مطلك مدب الزوبعي*

تاريخ قبول النشر ٢٠٠٥/١١/٨

ملخص البحث:

يعد الامام القشيري من ابرز اعلام الدرسات القرآنية في القرن الرابع الهجري بوصفه: مؤسس مرتكزات المنهج الاشاري في التفسير القائم على مراعاة ضوابط البحث في علم التفسير.

فقد اسهم الامام القشيري في بلورة دعائم هذا المنهج في مؤلفاته وجهوده الممثلة لهذا المنهج ومن ابرزها: (تفسير لطائف الاشارات). وقد تتبع الباحث خصائص هذا المنهج ودوره في الحركة التفسيرية وفي عصر الامام القشيري. وتوصل الباحث الى اهمية اعتماده نموذجاً تطبيقياً للمنهج الاشاري في اطار دراسة مناهج التفسير في العلوم الاسلامية.

المبحث الاول

نشأة الامام القشيري ومؤهلاته العلمية

ولد الامام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الله بن طلحة بن محمد القشيري سنة ٣٧٦ هجرية في احدى نواحي (نيسابور)(١) التي شهدت في القرن الرابع الهجري نشاطاً فكرياً ضخماً حيث كانت مركزاً للحوار الفكري زاخراً بمجالس الادباء والمفكرين واعلام الدراسات الاسلامية ومشايخ الطرائق الصوفية امثال الشيخ ابو علي الدقاق وتلاميذه البارعين في العلوم العقلية والنقلية.

وتؤكد المصادر التاريخية ا لموثوقة الدور الكبير لقبيلة (قشير) العربية العدنانية في الفتوحات الاسلامية حيث كان من سلالاتها التي انتشرت في المغرب والمشرق ولاة عادلين وقادة لامعين في خراسان ونيسابور(٢).

وكان لمظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في البيئة التي نشأ فيها الامام القشيري دورها الواضح في تكوينه الفكري ونبوغه العلمي ومشاركته الفاعلة في الحياة الاجتماعية.

فقد انجز تحصيله العلمي في علوم عصره الاساسية في وقت مبكر من شبابه وانضم الى مجموعة من فتيان مدينته في رحلة الى نيسابور لتلقي علوم الحساب والامور المالية التي تؤهلهم لتنظيم النواحي الاقتصادية الا ان هذه المهمة لم تكن منتهى تطلعه، وغاية رحلته ؛ كما يشهد لذلك نزوعه المبكر نحو التزود من العلم والتعمق في الدراسة والبحث وملازمة أعلام عصره المشهود لهم النبوغ الفكري والعطاء العلمي المتميز في العلوم العقلية والنقلية .

فأجتذبته مجالس الفكر في الفقه والادب والحديث والتفسير ، وأظهر براعة في مناظرات شيخه محمد بن ابي اسحق الاسفراييني(٣).

وهي مناظرات تمثل صورة التفكير الاسلامي في القرن الرابع الهجري الذي شهد مرحلة استقطاب فكري شامل لحقول المعرفة المتنوعة ، وكان التركيز على العلوم العقلية في الحوار الفلسفي هو السائد . فقد واجه سلطان الفكر الاسلامي تحديات خطيرة دفعت علماء المسلمين الى التصدي البارع للتيارات الفكرية الهدامة من خلال الجدال العلمي القائم على الحوار العقلي والمناظرات المباشرة المستمدة من الاسلوب القرآني.

ويرى البعض ان سبب الرحلة الى نيسابور كان لمواجهة الظروف التي مر بها في موطنه والمحن التي واجهها بسبب مواقفه في الدفاع عن الاسلام . وكان لعلماء نيسابور مكانتهم المشهودة التي عبروا عنها بثراء فكري في

* قسم الدراسات الاسلامية - كلية الشيخ محمد الكسنزان الجامعة.

(١) طبقات الصوفية / أبو عبد الرحمن السلمي / ٣٥٨.

(٢)طبقات المفسرين / الداودي ٣٤٦/١.

(٣) انظر / الاعلام / خير الدين الزركلي / دار العلم بيروت /طبعة ١٤ / ٤ / ٥٧ ، الموسوعة الفقهية الميسرة / دار النهضة لبنان /م ١ ١٣٨٢ .

المصنفات الضخمة والشروح والحواشي والمخطوطات النفيسة . وللامام القشيري مؤلفات كبيرة تعكس ميله الى التأليف والتدوين ، ومن هذه المؤلفات(١):

١-التيسير في التفسير . ٢- لطائف الاشارات . ٣- الرسالة القشيرية . ٤- شكاية أهل السنة بما نالهم من المحنة . ٥- لقصيدة الصوفية ٦- آداب السماع ٧ – ترتيب السلوك . ٨ – الاربعون حديثا . ٩ – التوحيد المحمدي. ١٠ – اللمع . ١١ – الفصول . ١٢ – الفتوة. ١٣ – نحو القلوب الصغير ١٤ – نحو القلوب الكبيرة . ١٥ – المعراج. ١٦ – المقامات الثلاث .

واهم تلك المؤلفات (التيسير في التفسير و لطائف الاشارات والرسالة القشيرية) التي حظيت باهتمام الباحثين في الدراسات اللغوية والبلاغية والادبية والمعنيين بالادب الصوفي(٢).

فكان الامام القشيري اديباً عنواناً لرسالة دكتوراه في آداب اللغة العربية عام ٢٠٠٠(٣). كما تناول منهج الامام القشيري في التفسير عدد من الباحثين(٤). واصدر المجمع العلمي العراقي في اعداد مجلته (١٧ و ١٨) لعام ١٩٩٦ اربع رسائل في التصوف للامام القشيري.

ومن خلال هذه المؤلفات يتضح جانباً من المؤثرات التي أسهمت في تكوينه العلمي فقد كان اتصاله بالامام ابي اسحاق الاسفرابيني المتوفي ٤١٨ هـ(٥) والذي يعد ابرز اعلام العصر المؤشر الاول على نبوغ الامام القشيري . فالامام الاسفرابيني الذي اظهر نمطاً جديداً من التفكير باستخدام العقل في الدفاع عما جاء في النقل يعد ابرز رواد المدرسة الجديدة في علم الكلام والتي اكملت ما أسسه الامام الاشعري على يد القاضي ابو بكر الباقلاني المتوفي ٤٠٣ هـ(٦). والذي ترك تراثاً ضخماً في المناظرات الفكرية والحوار الديني وتصحيح المفاهيم الاسلامية وانتهت اليه الرياسة في مذهب الاشاعرة(٧). وعلى منهجه سار صفوة من اعلام الاسلام امثال ابي الحسن بن فورك المتوفي ٤٠٦هـ . وابي اسحاق الاسفرابيني . فقد حظي الامام القشيري برعاية خاصة من لدن شيوخه اعلام العصر لما اظهر من بلد تعداده طلب العلم من الادب الظريف في استقامة الخلق و نباهة الفكر ورجاحة العقل.ذكر السبكي حادثة طريفة اكدت تلك الاستعدادات الذهنية التي فارق بها الامام القشيري أقرانه في العلوم العقلية فقد طلب منه شيخه الاسفرابيني تدوين ما تلقاه مما لا يحفظ بالسماع . فأعاد التلميذ بكل ما عرف عنه من آدب مع شيخه كل ما سمعه منه ونال بذلك تكريم شيخه بالاحالة الى مصادره دون الحاجة الى حلقات الدرس التي كان يتلقاها في مجالسه(٨).

اما المؤشر الثاني في تكوينه العلمي والذي يعد نقطة تحول في حياته العملية . فهو ما حصل باتصاله بالشيخ ابي علي الدقاق والاستماع الى مواعظه في المعارف العليا من علم اليقين.

ولعل خير ما يفصح عن مؤهلاته العلمية النقلية والعقلية وفي علوم الشريعة والحقيقة رسالته القشيرية التي حظيت باعجاب الناس(٩) واثارت فضول الباحثين بالنقد والتعليق والشرح والتوضيح حتى قيل ان القشيري احد اعلام الصوفية لم يعرف الا من أثر واحد هو الرسالة القشيرية في التصوف. ومهما أثير حولها من نقد علمي . فانها تظل في سياقها التاريخي ومحتواها الفكري معلماً بارزاً من معالم غزارة فكر الامام القشيري ونزعه الى التصوف واشتغاله بحاجات الروح والقلب ، والعقل والنفس وفي الجانب التحقيقي من علم العقائد ، والجانب الباطني القلبي من قضايا الفقه الاسلامي(١٠).

وهكذا سلك الامام القشيري مسلك خواص السنة المحافظين على الاعمال القلبية واصلاح الباطن بالتزكية النفسية والرياضة الروحية ، وصولاً الى علم اليقين الذي لا ينقدح الا بالبيعة والخلوة والتأمل وقطع الشواغل بمخالفة هوى النفس والاتصال الدائم بالحق جل وعلا.

والذي يبدو من خلال العلاقة الروحية بين الامام القشيري وشيخه (الدقاق) ان هذه العلاقة حصلت بعد ان توافرت لدى الامام القشيري مكونات العلوم النقلية والعقلية فكان اتجاهه نحو غاية التصوف العملي في صحبة الشيخ (الدقاق).

---

(١) ينظر منهج لطائف الاشارات في التفسير / رسالة ماجستير كلية العلوم الاسلامية / بغداد ١٩٩١.

(٢) مقدمة لطائف الاشارات / ابو القاسم القشيري / تحقيق ابراهيم البيسوني ١ / ٥٣ .

(٣) عبد الكريم القشيري ، اديباً ، د. ايمان كمال مصطفى المهداوي / كلية التربية ابن رشد ، جامعة بغداد، ٢٠٠٠.

(٤) منهج لطائف الاشارات في التفسير / رسالة ماجستير / كلية العلوم الاسلامية – جامعة بغداد ، ١٩٩١/ التفسير الاشاري ماهيته و ضوابطه / د . مشعان سعود / جامعة بغداد العلوم الاسلامية ١٩٨٨ ، مقدمة لطائف الاشارات / تحقيق ابراهيم بسيوني .

(٥) طبقات الشافعية / السبكي ٨٦/٣.

(٦) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم متز ٣٠٣/١.

(٧) الباقلاني وآراه الكلامية ، الدكتور محمد رمضان عبدالله ١٣١/.

(٨) طبقات الشافعية / المصدر السابق ٢٤٣/٣.

(٩) تاريخ بغداد / الخطيب البغدادي / ٨٣/١٠.

(١٠) تربيتنا الروحية / سعيد حوى / ٢٣.

وكان لسان حال الامام القشيري يقول :

((انا لهذا خلقت))(١) ويشهد لذلك استعداداته العالية قدرة واستمراراً ويقظة وشعوراً وموازنه دقيقة في مجال الحياة العملية . فقد اشتغل بالتدريس وهو في الثلاثين من عمره . ومن خلال مزاولة مهنة التدريس والتفرغ للتأليف والتدوين ومواكبة الحركة الفكرية في عصره جمع الامام القشيري علوم عصره وتميز على اقرانه بعلوم الشريعة والحقيقة.

والامام القشيري في حديثه عن التصوف والصوفية يقدم التفسير العلمي والمنهج العقلي والرؤية الصادقة لشهادات اعلام الامة عن اهمية التصوف بوصف أعلامه في الصف الاول من حيث حضورهم مع الله تعالى وتسابقهم في سائر الطاعات.

وفي مجال نشأة علم التصوف يرى الامام القشيري ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتصفوا بصفة افضل من الصحبة وهم الصحابة رضى الله عنهم . ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب . فأطلق على خواص الناس بالزهاد والعباد ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا ان فيهم زهاداً فانفرد خواص أهل السنة المراعون لأنفسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طريق الغفلة باسم التصوف(٢).

ولذلك كانت الرسالة القشيرية من أهم مصادر علم التصوف كما يرى الشيخ الشعراني فقد جاء في الطاف المن والاخلاق (وكانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ أنني كنت اطالع كتب القوم كرسالة الامام القشيري ، وعوارف المعارف والقوت لابي طالب المكي ، والاحياء لغزالي ونحو ذلك(٣).

وكانت تحقيقات الامام القشيري في التصوف تعبر عن وعي عميق لروح الاسلام واركان الدين وضرورات التصوف لاحياء القلوب وتهذيب النفوس ونتائجه في انتشار الاسلام.

فقد جاء في مقدمة الرسالة القشيرية ما نصه (جعل الله هذه الطائفة صفوة اوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الامة بطوالع انواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون في عموم احوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدرات البشرية ، ورقاهم الى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ، ووفقهم للقيام باداب العبودية واشهدهم مجاري احكام الربوبية ، فقاموا باداء ما عليهم من واجبات التكاليف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الاعمال او صفا لهم من الاحوال ، علماً منهم بأنه حل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد)(٤).

والامام القشيري في تصويره التصوف الحق الناطق بالصفاء والنقاء يرى في الذكر منار الوصال ، وعلامة صحة البداية ، وانه ترجع اليه جميع الخصال المحمودة حيث يقول (الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام الذكر)(٥).

وفي مراتب الصدق يقول الامام القشيري (أقل الصدق استواء السر والعلانية والصادق من صدق في اقواله ، والصديق من صدق في جميع أقواله وافعاله واحواله).

ويعرف الاخلاص بقوله : أفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد ، ويصح ان يقال الاخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

كما يحدد معنى التوكل والتقدير بقوله (التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لاتنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد ان التقدير من قبل الله تعالى ، وان تعسر شيء فبتقديره ، وان اتفق شيء فبتيسيره)(٦).

كما اظهر الامام القشيري اهتماماً خاصاً بالجوانب الاخلاقية في الايثار والفتوة ومبادئ الفروسية كما تشهد بذلك مؤلفاته التي تعني بهذا الجانب في تربية الذوق وفي التحلي بجماع مكارم الاخلاق.

وبذلك قدم الامام القشيري للحركة الفكرية في عصره اغناءات فكرية تجديدية وساهم مساهمة جليلة في تقديم الصورة الناصعة للاسلام في الجانب المفاهيمي والسلوكي. مثلما قدم نتاجاً ادبياً تجمعت فيه الخصائل والفضائل بوصفه ادباً فنياً اصيلاً منبعثاً من معاني روحية وآثار قلبية صادرة عن روح نقية بأساليب بلاغية تعد من روائع الادب(٧).

---

(١) وفيات الاعيان ٣٧٥/٢.
(٢) المصدر نفسه / ١٧.
(٣) الامام الشعراني ، لطاف المن والاخلاق ٤٩/١.
(٤) الرسالة القشيرية ، للامام القاسم القشيري ، المتوفى ٤٦٥هـ/٢.
(٥) المصدر نفسه ، ص١١٠.
(٦) المصدر نفسه ، ص٧٦.
(٧) الادب في التراث الصوفي ، د. عبد المنعم خفاجي ، ص٧٢-٨٠.

ويرى الباحثون في الادب الصوفي ان الاشارات التي احتواها التفسير في مؤلفات (التستري ، السلمي ، القشيري) نبهت الباحثين بالادب العربي ودفعتهم الى البحث عن تلك الثروة الادبية في الاشارات الصوفية ومن خلال القراءة المتأملة لجهود القشيري نجد انها كانت مستوعبة لاصول التربية والتهذيب واصلاح الاخلاق المستمدة من اخلاقيات القرآن الكريم بوصفها اساس الشريعة وروح الاسلام وهذا ما عناه الامام القشيري بقوله (كل خاطر لا يشهد له ظاهر فهو باطل)(١).

المبحث الثاني

مكانة الامام القشيري في حركة التفسير

بدأ البحث في استنباط معاني القرآن الكريم تفسيراً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتعلمون ما في الايات القرآنية من العلم والعمل في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان الامام علي بن ابي طالب وابن عباس رضي الله عنهما اكثر الصحابة قولاً في التفسير والتأويل وان لم تكن الحاجة شديدة لبيان معاني الفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار او توسع . وعندما دخل في الاسلام اقوام من غير العرب برزت الحاجة الى بيان معاني القرآن الكريم وصار التفسير من اصول العلوم الشرعية وأول ما اشتغل به علماء الاسلام وفيه كثرت مناظراتهم.

فمنهم من جمع الاثار المروية في تفسير القرآن الكريم ونقل الروايات عن السلف وأشهر من سلك هذه الطريقة محمد بن جرير الطبري في تفسيره الذي أسماه (جامع البيان في تأويل القرآن) ومنهم من سلك طريقة أهل الرأي وا [illegible] الوان التفسير على وفق اغراض المفسر ومؤهلاته البيانية والعقلية.

ولما كان التفسير صورة من صور التفكير الاسلامي فقد شهد القرن الرابع الهجري نتاجاً ضخماً في المصنفات التي عنيت بتفسير القرآن الكريم وتاويله قال ابن عاشور (فكثرت في كتبهم الموضوعات الى ان جاء في عصر واحد عالمان جليلان احدهما بالمشرق ، وهو العلامة ابو القاسم محمود الزمخشري ، صاحب الكشاف ، والاخر بالمغرب وهو الشيخ عبد الحق بن عطية ، فألف تفسيره المسمى (المحرر الوجيز) كلاهما يغوص على معاني الأيات ويأتي بشواهدها من كلام العرب ويذكر كلام المفسرين الا ان منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أخص ومنحى الشريعة على ابن عطية اغلب وكلاهما مرجع من بعدهما من اولى الالباب)(٢).

والمتأمل في حركة التفسير في هذا العصر التي تجاوزت حالة الجمود وفتحت الباب واسعاً امام سعة معاني القرآن الكريم النبع الصافي لعلوم الحياة كلها يجد انها اتخذت الواناً جديدة تمثل صورة التفكير الاسلامي ، فظهرت مصنفات تعنى بعرض الأراء الفقهية والتفصيل في الاحكام الشرعية ، والخلافات المذهبية حتى صارت بعض التفاسير مصنفات فقهية كما ظهرت مؤلفات في التفسير اهتمت بحشو المصطلحات الفلسفية ، والبراهين المنطقية، والتصدي للآراء الفلسفية بعيداً عن اغراض الهداية القرآنية واتجه بعض المفسرين نحو استخراج النكت البلاغية والجوانب الفنية والجمالية في البيان القرآني . كما ظهر التكلف في التأويل ، والتعسف في التفسير انتصاراً للآراء الكلامية ، والمذاهب الفقهية ، والاتجاهات الفكرية وأهواء الفرق الدينية ، الأمر الذي دفع اعلام الأمة الى وضع الضوابط التي تبين اغراض التفسير ومؤهلات من يتصدى لبيان معاني القرآن الكريم ، وتحذر من مخاطر التفسير الباطني المبني على الهوى والرأي المذموم.

فشارك أهل السلوك والتصوف في صياغة تلك الضوابط ،و في اثراء الدراسات القرآنية بالتدقيقات التأويلات والأشارات المتعلقة بكلام رب العالمين . وبلون جديد هو اللون الاشاري في التفسير، القائم على التنبيه الى البواطن من ذكر الظواهر لأشارات تظهر لأرباب السلوك ودقائق تنكشف للسائرين في مسالك علم اليقين ، ولطائف تدرك باستيقاظ الذهن وصفاء النفس والتقاط الدقائق والحقائق ، ومواجد القلوب عند التلاوة او تنقدح في ذهن قارئ القرآن الكريم وسامعه ، وتكون متوافقة او متناسقة مع الظواهر المرادة(٣).

ومع ان التأويل بمعناه المرادف للتفسير او صرف اللفظ عن ظاهره لدليل مقابل التفسير، كان معروفاً ومعمولاً به في حركة التفسير الا ان المفسرين في ذلك العصر وضعوا شروطاً لصحة صرف اللفظ عن ظاهره ومنها احتمال اللفظ للمعنى الذي صرف اليه ، ووجود دليل يوجب ذلك الصرف(٤).

اما الاشارات الصوفية فان نسبة الاشارة الى لفظ القرآن مجازية وان لم تكن [illegible] من لوازم اللفظ

(١) الرسالة القشيرية ٢٤٢/١.

(٢) التحرير والتنوير / ابن عاشور ١٦/١.
(٣) التفسير الاشاري ماهيته وضوابطه ، الدكتور مشعان سعود / كلية العلوم الاسلامية ١٩٨٧ / ٦١.
(٤) التفسير والمفسرون / محمد حسين الذهبي ١٨/١.

وحق الدلالة اللفظية الاستعمالية لانها تجري في الغالب مجرى التمثيل لحال شبيه ولذلك كانوا يعنون بالمعاني التي لا تحتملها الفاظ القرآن الكريم ان الآية تصلح للتمثيل بها في الغرض المتكلم فيه حتى جاء الامام القشيري فكان اكثر اعلام التفسير دقة في اطلاق لفظ الاشارات على تلك المعاني.

وكان أعلام التفسير الاشاري يرون ان معاني القرآن الكريم لا تنحصر فيما يتبادر الى الناس من ظاهرة وان كان الظاهر مطلوباً والعمل به واجباً ، وان لكلام الله تعالى اشارات الى معاني عميقة يستنبطها أهل الفهم وهم خاصة الله وأولياءه(١).

واذا كان التستري المتوفى ٢٣٨ هـ اول علماء الصوفية ممن ألف تفسير القرآن العظيم وتعرض للتفسير الاشاري وذكر الامور التي تحدث فيها الصوفية في ذلك العصر.

فان ابا عبدالرحمن السلمي المتوفي بنيسابور ٤١٢ هـ (٢) هو الذي جمع ورتب أقوال الصوفية على اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم في كتاب مستقل في تفسير كتاب الله تعالى عن طريق الاشارات(٣).

الا ان السلمي في تفسيره أورد كثيراً من الروايات المنقطعة ، والافكار التي فيها الغموض والتعقيد وللمفسرين في مكانة تفسيره آراء متعارضة . فمنهم من عده من التفاسير المقبولة كأبي حامد الاسفرابيني و الامام الغزالي(٤) ومنهم من قال فيه ما هو مقبول وما هو مردود كالامام ابن تيمية والسبكي(٥).

حتى جاء الامام القشيري الذي أجمع أهل عصره على انه قدوة المسلمين في عصره ولقيت مؤلفاته القبول التام بعد نبوغه وتفوقه في التفسير والفقه والاصول وعلم الكلام واللغة والتصوف(٦).

فبدأت جهوده الضخمة في التفسير فألف تفسيره الاول الموسوم (التيسير في التفسير) عام ٤١٠ هجرية. بين فيه الاشارات اللطيفة المستخرجة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسلك منهج التفسير بالأثر من خلال تفسير آيات القرآن الكريم اعتماداً على الاثار المروية ، ودلالات اللغة ، ومقتضيات الكلام(٧).

وهذا التفسير شاهد على علو مكانة الامام القشيري في علم الحديث الذي أخذه عن العلماء المشهورين وروت عنه طائفة كبيرة من العلماء ، كما برع في اللغة فكان اديباً وشاعراً شجاعاً متواضعاً كسب عقول الناس بعلمه في مجالس الوعظ والتذكر والتدريس. وبعد اكثر من ثلاثة عشر عاماً من التأمل في كتاب الله العزيز انجز الامام القشيري أول تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم متميز على تفسير شيخه السلمي في الجوانب الآتية:

١. كونه تفسيراً كاملاً بالاشارات واللطائف مما جاء على لسان أهل الفهم الاوفياء من عباد الله الذين اكرمهم الله لفهم ما أودعه من لطائف اسراره ، وما ضمته من دقيق اسراره ، وبما لاح من دقيق اشارته وخفي رموزه . كما عبر عن ذلك بقوله (انها اما معان عقولهم او قضايا أصولهم)(٨).
٢. تميز الطائف الاشارات بخاصية الاسلوب في العرض ، فقد صاغ الامام القشيري كلام أهل الاشارات بعبارات سهلة مناسبة لافهام الناس، مؤثرة في القلوب ، مثيرة للعواطف ، ببراعة التعبير وافانين التأثير،فكان تفسيرا يمثل مرحلة فوق مرحلة التفاسير التي لم تعنى بكشف الاذواق وابراز الاحاسيس التي انتجتها قرائح الصوفية في تدبرمعاني الايات القرآنية
٣. التزام القشيري ضوابط التفسير في اطار منهج البحث في العلوم الاسلامية فقد حدد الامام القشيري مقصده من الكتاب في وصفه مخصصاً للتفسير الاشاري ، القائم على التوفيق بين الشريعة والحقيقة.
٤. وهو وان لم يذكر التفسير الظاهر في الغالب للأيات واكتفاء بذكر الاشارات فقد كان موضع قبول علماء التفسير من غير الصوفية. وكان تفسيره مرجعاً لمن جاء بعده من

(١) تفسير القرآن العظيم / سهل بن عبدالله التستري ٢٨٣ هـ / دار احياء الكتب العلمية / ٢-٥.
(٢) طبقات المفسرين للسيوطي ٨٤ ، حلية الاولياء ٥٢/٢ ، طبقات الصوفية / ٤٨.
(٣) مناهج المفسرين / منيع عبد الحليم / مطبعة نهضة مصر ١٩٨٧ / ص٧٥.
(٤) سير النبلاء / الذهبي ٥٦/١١ ، مقدمة طبقات الصوفية / ٤٤.
(٥) حقائق التفسير للسلمي ، تحقيق سلمان نصيف ، رسالة ماجستير / القاهرة / ١-٣.
(٦) طبقات المفسرين ، شمس الدين الداودي / تحقيق على محمد عمر /١ / ٣٤٠.
(٧) المصدر نفسه ٢٤٣/٢.
(٨) لطائف الاشارات ٩٤/١ ، ١٠٩، ١١٣.

المفسرين ومصدراً موثوقاً اعتمده المفسرون ، ونقلوا عنه المعاني الاشارية التي ابرزت الاثار الواضحة للتصوف في حركة تفسير القرآن الكريم . وبذلك دون الامام القشيري مكانته في اشرف العلوم مكانة وأحق ما تتجه اليه الدراسات وهو العلم المتعلق بكلام الله تعالى تفسيراً وتأويلاً دون الخروج عن القواعد التي تقتضيها منهجية البحث في علم التفسير .

فاعتمد القشيري منهجاً متميزاً في التفسير والوضوح واعتماد اصول العلم من الاثار الصحيحة وعدم صرف الالفاظ عن ظواهرها الا بدليل نقلي او عقلي ومراعاة مقتضيات الكلام العربي البليغ وهذا المنهج هو ما أسسه في تفسيره (التسيير في التفسير).

كما وضع الامام القشيري اصول المنهج الاشاري في التفسير لحفظ احاديث اعلام الصوفية عن التحريف ، وضبط الاستقامة في الاذواق والفرز بين الحقيقة والخيال ، والتنبيه الى البواطن من ذكر الظواهر بما يمنع الابهام والالتباس. وكان استخدام مصطلح التأويل بقصد المعاني الاشارية يشوبه الغموض فأوضح الامام القشيري معالم التفسير الاشاري وضوابطه وبه تأثر كثير من أئمة التفسير وساروا على وفق منهجه الذي اقامه على تذوق اللفظه القرآنية المتجددة المعاني عن طريق الاشارات من خلال قدرته البارعة واتقانه الوان العلوم النقلية والعقلية واتقانه المصادر التشريعية التي يحتاج اليها المفسر .

وكان من النتائج الايجابية لدور الامام القشيري في حركة التفسير في هذا العصر تبصير الامة بمخاطر الحركات الباطنية ، والاتجاهات الفكرية الهدامة التي حاولت استغلال شمولية المعاني القرآنية الظاهرة والباطنة الصالحة لاستنباط المستنبطين بما يخدم أهواء اعداء الاسلام، وهكذا كانت جهود المفسرين والوان التفسير الزاهية في ذلك العصر تمثل الرد الفكري على تلك التيارات الباطنية بمنهج علمي رصين . اكد جانباً من معاني الرعاية الربانية

في حفظ الذكر الحكيم والنور المبين ولبيان تطبيقات المنهج الاشاري نعرض نماذج من تفسير لطائف الاشارات الذي يعد عمدة الباب في الادب الصوفي الرصين والتفسير الاشاري الموافق بين الحقيقة والشريعة

ففي سورة البقرة قال الامام القشيري : قالوا في قوله تعالى (فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون)(١).

أي(اضداداً) فأكبر الاضداد النفس الامارة بالسوء المتطلعة الى حظوظها ومناها بغير هدى الله ، وقال بعضهم : ولا تعلقوا قلوبكم بالاغيار في طلب ما تحتاجون اليه ، لان توهم أن شيئاً من الحوادث له نفع او ضر فهو من الشرك(٢).

وفي سورة النساء قال في قوله تعالى (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)(٣).

قالوا خواطر الحق سفراؤه تعالى الى العبد ، فمن خالف لطائف الاشارات ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب ، ومنها ان يعمى عن ابصار رشده وكما ان مخالف الاجماع عن الدين خارج ، فمخالف ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق ساقط(٤).

وعند التأمل في هذه الاشارة التي ذكرها الامام القشيري ، نجد ان المفسرين أوردوا في احتمالات المراد من قوله تعالى (من بعد ما تبين له الهدى) المعاني الاتية :

اولاً-المراد من بعد ما آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فتكون الآية وعيداً للمرتد بعد الايمان.

ثانياً-المراد من بعد ما ظهر صدق النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات ولكنه شاقه عناداً.

ثالثاً-ان السبيل في الآية مستعار للاعتقادات والافعال والعادات اذ ان السبيل لكل قوم هو طريقهم التي يسلكونها كما شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية على صحة الاجماع.

قال ابن عاشور اول من احتج بها على ذلك الامام الشافعي ، فقد روى ان الامام الشافعي سئل

(١)سورة البقرة / الآية ٢٢.
(٢) لطائف الاشارات / الامام القشيري ٨٠/١.
(٣)سورة النساء / الآية ١١٥.
(٤) لطائف الاشارات / القشيري م٥٩/٢.

عن آية في كتاب الله تدل على ان الاجماع حجة فقرأ القرآن الكريم ثلاثمائة مرة ، حتى وجد هذه الاية(١).

وجاء في ظلال القرآن ذكر سبب نزول الآية ان بشير بن ابيرق قد ارتد ولحق بالمشركين ، فكان من قبل في صفوف المسلمين ، ثم اتبع غير سبيل المؤمنين لكن النص عام ينطبق على كل حالة ، ويواجه كل حالة ينطبق عليها ما ينطبق على ذلك الحادث القديم(٢).

وفي اطار هذه الخلفية الفكرية التي اقام عليها الامام القشيري منهجه الواضح في التفسير الاشاري نجده كذلك اديباً بارعاً في مراعاته الحلقة اللغوية في التفسير وفي اتفاق المصطلحات مع القواعد اللغوية.

كما جاء في تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)(٣).

حيث قال :أجاب واستجاب بمعنى مثل او قد واستوقد ، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية بأنها تكون طوعاً لاكرها ، وفرق بين من يجيب لخوف او طمع، وبين من يستجيب بلا غرض ولاعلى ملاحظة غرض ، وحق الاستجابة ان تجيب بالكلية من غير ان تذر من المستطاع بقية(٤). وتعابير الامام القشيري في لطائف الاشارات فيها من المقابلات الجميلة والدقة في الاستعمال ما يؤكد براعته الادبية واستيعابه الجوانب الفنية في البلاغة القرآنية . اما اشاراته الموجهة الى ذوي البصائر فهو مقصد لطائف الاشارات بوصفها تعبيرا عن فهم عميق لما وراء الحدود الشرعية من الكرم الالهي، فهو يرى ان الرخصة في الشريعة للمستضعفين وارباب الحوائج والاشغال . وأن الصوفية ليس لهم شغل سوى القيام بحقه تعالى- لذلك فأن نزولهم عن درجة الحقيقة الى رخصة الشريعة يعد فسخاً للعقد مع الله تعالى ونقضاً للعهد بالنسبة لارباب الاحوال(٥).

ولعل الوصايا التي يحث فيها الامام القشيري على آداب الصحبة والمعاشرة والايثار وان لا يفضي المريد باسراره الا لارباب الطريقة من الشيوخ ، والتفريق بين المعرفة الكسبية والمعرفة الضرورية ، هي ابرز اغراضه في خصوصية هذا اللون ومكانته في حركة التفسير، اما الغرض الذي لا يقل اهمية عما ذكرنا من النماذج التطبيقية فهو ما قدمه التفسير الاشاري الذي صاغه الامام القشيري من فتح وجوه جديدة في الاعجاز القرآني اسهمت في تنوع الدراسات القرآنية وظهور اتجاهات جديدة في الكشف عن جوانب ثراء النص القرآني واتساع معانيه وصلاحيتها لاستنباط المستنبطين في اطار ضوابط البحث في العلوم الاسلامية.

وهذا ما قدمه الامام القشيري المفسر من ذوي الاذهان الصافية الذين حصل لهم من المعاني والاشارات والمعارف والعلوم ما تتغذى به القلوب المشرقة حيث اسهم بدور واضح وكبير في حركة التفسير ومضاعفة الاهتمام بمعاني آيات القرآن الكريم في النفوس من خلال الكشف عن ما أقامه القرآن الكريم من ظواهر نفسية ونفحات روحية تعد عمدة الباب في الادب الصوفي والاشارات الصوفية ومنهج التفسير الاشاري للقرآن الكريم بوصفه مفسراً من ابرز اعلام الدراسات القرآنية في القرن الخامس الهجري.

الخاتمة

يعد الإمام القشيري احد إعلام القرن الخامس الهجري المتفردين في العلوم النقلية والعقلية.

وقد تناول الباحثون سيرته و مكانته العلمية بوصفه ابرز علماء الصوفية المعتدلين ، فكانت الرسالة القشيرية عمدة الباب في مباحث الصوفية و موضع اهتمام الباحثين في الأدب الصوفي.

إلا إن جهوده في التفسير النابعة من اهتمامه بالتربية الروحية المستمدة من تعاليم القران الكريم النبع الصافي لعلوم الحياة كلها كانت أكثر أهمية في مواجهة التيارات الفكرية ، والأفكار الباطنية

(١) تفسير التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ٢٠١/٥.
(٢) تفسير ظلال القرآن / سيد قطب ٧٥٩/٢.
(٣) سورة الانفال / الآية ٢٤.
(٤) لطائف الاشارات م٣٠٩/٢.
(٥) لطائف الاشارات /م٢ /٢٠-٣٠٩.

الهدمية التي حشرت في الدراسات القرآنية وابعدت الناس عن مقاصد الهداية القرآنية، والتربية الروحية في الإسلام .

أسهم الإمام القشيري في صياغة لون جديد من الوان التفسير المنضبط بضوابط التفسير المقبول هو التفسير الاشاري من خلال لطائف الإشارات الذي صار عمدة الباحثين في المعاني الاشارية الموافقة لإحكام الشريعة والمتوافقة مع المعاني الظاهرة المرادة من ألفاظ القران الكريم.

وللتعرف على الأسس التي اقام عليها الإمام القشيري الإشارات القرآنية وضوابط التفسير الاشاري وأهميته في الحركة التفسيرية.

نرى ضرورة اعتماد الجهود التفسيريه للإمام القشيري نموذجا تطبيقيا للتفسير الاشاري في مفردات مناهج المفسرين المقررة في دراسة العلوم الإسلامية لما تميز به(لطائف الإشارات) من تحديد دقيق للمصطلحات بفصاحة البيان و براعة الأسلوب , و فرز واضح بين المعاني الظاهرة و بين التأويل الباطني , و بين الإشارات المؤثره في النفوس و الموجهة للعقول والصادر ، عن الوفق بين الحقيقه و الشريعه بعد ان كانت المعاني الاشاريه في جهود السابقين للإمام القشيري يسودها التعقيد و الغموض و تباين آراء العلماء في الموقف منها رفضا وقبولا .

فرحم الله الامام القشيري فقيها مفكرا , و شاعرا أديبا و مفسرا صوفيا أثرى الدراسات القرآنية بجهوده التفسيريه المتميزه.

مصادر البحث

القرآن الكريم

١- تاريخ بغداد / أبو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي/ طبعة القاهرة/ ١٩٣٠م.

٢- تفسير القرآن الكريم/ سهل بن عبد الله التستري / دار احياء الكتب العلمية/بيروت ١٩٧٦.

٣- التحرير والتنوير/ محمد الطاهر بن عاشور/ الدار التونسية للنشر/ ١٩٧٣.

٤- التفسير والمفسرون/ محمد حسين الذهبي/ دار الكتاب العربي/ مصر/ الطبعة الاولى ١٩٦١.

٥- حقائق التفسير/ ابو عبد الرحمن السلمي/ تحقيق سلمان نصف/ مطبعة القاهرة/١٩٨٩.

٦- حلية الاولياء طبقات الاصفياء/ ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصفهاني/ منشورات المكتبة السلفية.

٧- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ آدم متز / استاذ اللغات الشرقية. جامعة ((بازل)) ترجمة الدكتور عبد الهادي بوريدة.

٨- سير اعلام النبلاء الامام شمس الدين بن محمد احمد بن عثمان الذهبي منشورات مؤسسة الرسالة/ المطبعة الرابعة/١٩٢٦.

٩- طبقات الصوفية/ ابو عبد الرحمن السلمي/ تحقيق نور الدين شريبة/ مكتبة الخانجي/ القاهرة ١٩٥٢.

١٠-طبقات الشافعية/ تاج الدين ابو نصر السبكي/ تحقيق محمود محمد وعبد الفتاح محمد الحلو/ القاهرة ١٩٦٤.

١١-طبقات المفسرين/ جلال الدين السيوطي/ منشورات دار الكتب العلمية/ بيروت/ ١٩٨٣.

١٢-طبقات المفسرين/ شمس الدين الداودي/ تحقيق علي محمد عمر/ منشورات دار الكتب العلمية.

١٣-في ظلال القرآن/ سيد قطب. دار الشروق/ الطبعة الحادي عشر/ ١٩٨٦.

١٤-لطائف الاشارات/ الامام القشيري, دار الكتاب العربي/ بيروت/ ١٩٨٨.

١٥-مقدمة لطائف الاشارات, ابو القاسم القشيري/ تحقيق ابراهيم بسيوني/ القاهرة/ ١٩٨٩.

١٦-مناهج المفسرين/ منيع عبد الحليم/ مطبعة نهضة مصر/ ١٩٨٧.

١٧-وفيات الاعيان/ ابن خلكان المتوفي ٦٨١ هجرية/ طبعة القاهرة/ ١٩٤٨.

الرسائل الجامعية

١. التفسير الاشاري ماهيته وضوابطه/ الدكتور مشعان سعود/ رسالة دكتوراه/ كلية العلوم الاسلامية/ بغداد/ ١٩٨٧.

٢. عبد الكريم القشيري اديباً, ايمان كمال المهداوي/ رسالة ماجستير/ كلية التربية ابن رشد/ جامعة بغداد/ ٢٠٠٠م.

٣. منهج لطائف الاشارات في التفسير/ رسالة ماجستير/ كلية العلوم الاسلامية بغداد/ ١٩٩١.

Imam Al-Qushayri was one of the most

Dr. Saeed Mutlak Mehdi Al-Zobaee
Islamic Studies Dept. - Shaikh Mohammad Al-Kasnazan University College

Abstract:

Eminent figures in Quranic studies in the fourth century of the Hegira, in his copacity as the founder of the essentials of the indicative approach in interpretation which is based on the consideration of research principles in interpretation science.

Al-Qushayri participated in clarifying the promotions of this approach in his works which represent this approach. The mast distinguished of these works is Tafseer Lataef Al-Isharat. The researcher examined the characteristics of this approach and its effect on the interpretative movement in Al-Qushayri age an come to employ them as a practical example for the indicative approach in studying the interpretation mebods in Islamic sciences.